الترجمة: ماهيتها ودورها كأداة تعلم وتواصل ثقافي

د. عبدالفتاح الجبر *

الملخص

تهدف هذه المقالة إلى تسليط بعض الضوء على ماهية الترجمة ودورها كأداة تعلم واتصال ثقافي. ومن أجل هذا الغرض، تبدأ المباحثة بعرض تاريخي موجز يبين تطور الترجمة لدى الغرب والعرب ودورها في حفظ الموروث الإنساني الثقافي والحضاري بشكل عام، بالإضافة إلى توضيح دور المترجمين العرب والمسلمين في هذا المجال وفي إرساء أسس منهجية علمية للترجمة أدت فيما بعد إلى تطور الترجمة كعلم له نظرياته ومدارسه المختلفة. كما تلخص المقالة ماهية الترجمة، وخاصة قضية المعنى وأثر اختلاف دلالات المفردات في سياقات خطابية مختلفة في معانيها. من ثم، يبحث الكاتب علاقة الترجمة بالعلوم الإنسانية الأخرى ودورها في تعلم اللغات الاجنبية وتفعيلها لعملية الاتصال والتواصل والتحاور الثقافي وأثره في معرفة الآخر، وكذلك الأثر السلبي للترجمة المغلوطة في عملية التحاور الثقافي بشكل عام.

* قسم اللغة الإنجليزية وآدابها - جامعة البحرين

Nature and Role of Translation as Tool for learning and Inter-Cultural Communication

Dr. Abdul-Fattah Al-Jabr

Abstract

This paper attempts to shed some light on the nature of translation and its role in learning languages and enhancing international cultural dialogue. It begins with a general historical background which aims to show Arab translator's role in maintaining human cultural heritage. Then, the author displays the relationships between translation and other human sciences. Translation as a tool for learning foreign languages, especially English, is also highlighted. Finally, the paper points our the nature of translation and its role in developing international dialogue.

* ***University of Bahrain***

توطئة تاريخية

يعود اهتمام الإنسان بالترجمة إلى عهد المملكة المصرية القديمة، حيث وجدت على جدران بعض معابد الفراعنة القدماء نقوش تمثل حروفا بلغات مختلفة [1]. كما ظهرت الترجمة في رسائل أمراء الشام إلى أخناتون التي يطلبون فيها منه المال والمعونة، وفي المعاهدة التي عقدها رمسيس الثاني مع ملك الحثيين، حيث يظهر كل منهما وبيده صورة من المعاهدة كتبت بلغة بلاده [2]. أما في الغرب، فلقد بدأ اهتمامهم بالترجمة عام 300 ق.م. عندما قام الرومان بنقل الموروث الثقافي والفلسفي والديني إلى الاغريق إلى لغتهم.

الترجمة عند العرب

بدأ اهتمام العرب بالترجمة عندما طلب الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، تعريب دواوين الفرس، فأسس ديوان الجند؛ لتسجيل أسماء الجنود ورواتبهم، وديوان الرسائل والبريد. ثم اشتد اهتمام العرب بالترجمة بعد هدوء فترة الفتوحات الإسلامية والتفاتهم إلى تأسيس حضارتهم التي تأثرت بما نقله مترجميهم عن التراث العلمي والثقافي للشعوب التي احتكوا بها مثل الفرس والرومان واليونان والهنود؛ حيث نقلوا عن اليونان كتب إقليدس وأرشميدس وبطليموس في الهندسة والفلك، وكتب أبقراط في الطب وكتب أرسطو وأفلاطون في الفلسفة، ونقلوا عن الهنود كتب «شاناق» في السموم و «السند هند» في الرياضيات والفلك، وعن الرومان كتب جالينوس في الطب [3].

وبلغ اهتمام العرب بالترجمة أوجه في عصر الخليفة العباسي المأمون الذي أنشأ **بيت الحكمة**؛ حيث جمع فيه كل ما أمكنه من كتب اليونان والسريان والهنود والفرس والرومان. ولقد ضم بيت الحكمة ثلة من ألمع المترجمين العرب الذين كانوا يتقاضون وزن ما يترجمون ذهبا. لقد وضع المترجمون العرب في تلك الآونة أسس منهجية علمية لعملية الترجمة، نتجت من ارتباط الترجمة بالكتابة والمراجعة حتى «يصل البلاغ إلى القارئ في لغته مكتملا» [4]. وكثيرا ما كان **أبو عثمان الجاحظ** يناقش

المترجمين في بيت الحكمة في عملية الترجمة، ونتيجة لذلك وضع معادلته في الترجمة والتي ترتكز على الإلمام بالموضوع المنقول من لغته الأصلية إلى لغة أخرى. وبلغ شغف الجاحظ بالترجمة، التي لم يمارسها فعليا، أن أصدر كتابه البيان والتبيين الذي أصبح نموذجا يقتدى به بعد أن «عانى صاحبه... من وعورة الترجمات وركاكتها فاستغرب واستقبح وخشي على اللغة والدين والشعر» [5]. كان من أثر كتاب الجاحظ في الترجمة أن ظهرت عملية التنصيص، أي إنتاج النص، وذلك بتعريبه، أي إضفاء الطابع العربي عليه وفق قواعد للكتابة تنطبق على النص، وكان من ألمع المعربين في تلك المرحلة **الجرجاني والسكاكي وابن المقفع** الذي «كانت كتاباته كمترجم نبراسا للجاحظ» [6]. وهكذا أفضت إشكالية التنصيص في الترجمة إلى تحديد معالم الكتابة الصحيحة التي ظهرت جلية في كتاب ابن المقفع **كليلة ودمنة**.

وظهرت حينذاك مدرستان للترجمة كما جاء في كتاب «الكشكول» للبهاء العاملي الذي نقل عن الصفدي، قوله: «وللترجمة في النقل طريقتان إحداهما طريقة **يوحنا ابن البطريق وابن ناعمة الحمصي**، وغيرهما، وملخصها أن ينقل المترجم النص اليوناني بحرفية مفرداته، أي كما هي مرتبة في النص الأصلي. فما أن يأتي بلفظة عربية مرادفة لكلمة يونانية بالمعنى حتى ينتقل إلى المفردة التي تليها وهكذا إلى نهاية النص». وأسلوب الترجمة هذا ما يعرف حديثا **بالترجمة الحرفية** word-for-word translation وهذا أسلوب ممجوج، غالبا ما يؤدي إلى ترجمة خاطئة أو ركيكة كما سيرد لاحقا. فاللغات تختلف في نظم ترتيب المفردات وفق علاقات نحوية معينة في جمل، وأيضا في العلاقات ما بين جمل النص؛ كما تختلف اللغات في السياقات الثقافية والاجتماعية والخطابية للمفردات والجمل والنصوص. هذا بالإضافة إلى أن أسلوب الترجمة هذا يهتم بالشكل ويهمل المضمون «المعنى». أما المدرسة الثانية والتي من أشهر مترجميها **حنين بن إسحق والجوهري**، فيتلخص أسلوبها في ترجمة معنى الجملة إلى العربية سواء أتطابقت الجملة «الأصل» مع المترجمة في اللفظ والتركيب أم خالفتها، وهذا ما أصبح يعرف حديثا **بالترجمة الحرفية للمعنى** literal translation

of meaning، والذي يحبذه علماء الترجمة المحدثون [7]. استمرت هذه المرحلة حتى القرن الثالث الهجري، ثم تلتها مرحلة جديدة من الإبداع تقوم على فهم العقل العربي لما ترجم، ومن ثم البناء عليه لتطوير إبداعات جديدة تسهم في إثراء الثقافة الإنسانية. من العلماء والفلاسفة الذين برزوا في تلك الفترة **الكندى والفارابي وابن سينا وابن النفيس والبيروني وابن البيطار وابن رشد**، وغيرهم.

وفي القرن السابع الهجري «الثالث عشر الميلادي» وأثر احتكاك الفرنجة بالعرب في الأندلس، بدأت مرحلة الترجمة العكسية من العربية إلى اللاتينية واللغات القومية الأوروبية، فترجمت أعمال ابن سينا وابن النفيس والزهراوي وابن البيطار وابن الهيثم وابن رشد وغيرهم لتبدأ نتيجة لذلك النهضة العلمية في الغرب، «ويؤكد روجر بيكون وفرانسيس بيكون وكلود برنار مبادئ العلوم المبنية على الملاحظة الدقيقة والتجربة الفاحصة التي كان للعلماء العرب «مثل الكندي، والفارابي وابن سينا، إلخ.» فضل ابتكارها بدل طريقة أرسطو القائمة على الاستنتاج المنطقي الذي لا يستند إلى دليل علمي» [8].

ومع بداية القرن العشرين، عاد للترجمة ألقها ثانية على يد أدباء عرب على رأسهم رفاعة **الطهطاوي والمنفلوطي وطه حسين وعادل زعيتر** وغيرهم، الذين قاموا بنقل أمهات الأدب والفكر الغربي إلى العربية. وممَّا يسترعي النظر حقا في تلك الآونة المنهجية العلمية التي اتبعها أولئك المترجمون والتي تحاكي المنهجية الحديثة في الغرب هذه الأيام. وخير مثال على ذلك المنهجية التي اتبعها «شيخ المترجمين العرب» آنذاك، عادل زعيتر، [9]، والتي تعتمد أساسا على اكتساب المترجم الثقافة المعرفية المعمقة حول الموضوع الذي يراد ترجمته، وذلك بقراءة أمهات الكتب التي تعالج ذلك الموضوع باللغة الأصلية. فكان عادل زعيتر يثقف نفسه بقراءة أمهات الكتب في الفلسفة الفرنسية لمدة ستة أشهر قبل البدء في عملية الترجمة، حتى يتمكن من فهم مصطلحات الفكر الفلسفي الفرنسي. وكان عندما يواجه إشكالية في نقل مفردة أو تعبير فرنسي لا يوجد له مكافئ دلالي في العربية، يسأل أهل اللغة

ممن هم على دراية بالموضوع. و كثيرا ما كان، رحمه الله، يلجأ إلى بعض السفارات الأجنبية للتأكد من النطق الصحيح للفظة أحنبية إذا تعذر وجود مرادف في اللغة العربية لها،واستلزم الأمر استخدام الكتابة اللفظية transliteration « ترجمتي»، أي استخدام حروف عربية لكتابة مفردة أجنبية كما تلفظ في لغتها الأصلية. يبدو أن بعض المترجمين العرب في بداية القرن العشرين قد سبقوا علماء الترجمة المحدثين في الغرب باتباعهم مثل هذه المنهجية.

الترجمة الآن

بينما كانت الترجمة في القرن التاسع عشر وسيلة للاتصال بين الأدباء والكتاب وبدرجة أقل بين الفلاسفة والعلماء والمثقفين، أصبح القرن العشرين بحق «عصر الترجمة» [10] أو «إعادة إنتاج النص» [11]، وكانت التجارة تعقد بلغة الدول المهيمنة، أما الديبلوماسية التي كانت باللغة اللاتينية أضحت في القرن التاسع عشر باللغة الفرنسية. أما الآن، فلقد أصبحت الاتفاقيات بين الدول والمؤسسات العالمية والمنظمات الخاصة تترجم إلى لغات الفرقاء المعنيين. كما أدى تأسيس منظمات دولية كمنظمة الأمم المتحدة بفروعها المتعددة، والشركات العالمية التي تعود ملكيتها إلى عدة دول إلى ازدياد الأهمية السياسية والاقتصادية للترجمة. ومع التطور التكنولوجي، أصبح من الممكن ترجمة الكتاب نفسه بلغات عدة وطباعته في بلاد مختلفة، الأمر الذي أدى إلى زيادة وتيرة عملية الاتصال على مستوى العالم والتعرف على حضارات وثقافات وآداب وأديان الأمم المختلفة. كما برزت الحاجة الملحة إلى الترجمة الفورية التي أسهمت في تطوير عملية الاتصال وفي تعرف المتلقي بالأحداث وقت وقوعها وبثها من خلال أجهزة التلفزة، والإنترنيت. هذا إلى جانب الترجمة المصاحبة للأفلام والمسلسلات والعروض التلفزيونية «subtitling» التي تعكس عادات الشعوب المختلفة وثقافتها.

وحيث إن الترجمة أضحت صناعة مهمة، أصبح بمقدور المترجمين استخدام وسائل التكنولوجيا الحديثة مثل الحاسوب والمعاجم الإلكترونية والبرمجيات المتنوعة

التي تساعدهم على سرعة الوصول إلى معاني المصطلحات التقنية أو الثقافية الخاصة بلغات وبنصوص محددة كالنصوص الدينية، والسياسية والقانونية والتجارية، إلخ. كما ظهرت نتيجة للتقدم التكنولوجي المتسارع الترجمة الآلية، التي ما زال العمل مستمرا على تطويرها.

الترجمة والعلوم الانسانية الأخرى

يمكن عَدُّ الترجمة أحد حقول المعرفة المتداخلة interdisciplinary filed of knowledge. فنظريات الترجمة تستمد في الأساس من علم اللغويات المقارن comparative linguistics من حيث إنها تعنى في المقام الأول باللغات المختلفة وأوجه التشابه والاختلاف بين أنظمتها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية. فمعظم الأسئلة التي يطرحها علم الدلالة semantics، مثلا، تتصل بنظريات الترجمة، خاصة نظرية المعنى meaning والتقابل الدلالي semantic equivalence. كما تستند نظريات الترجمة الحديثة إلى ما يستجد في علوم لغوية أخرى مثل علم لغة النص textlinguistics الذي يدرس علاقات المعنى التي تؤدي إلى ترابط جمل النص المكتوب في وحدة لغوية واحدة؛ وتحليل الخطاب discourse analysis الذي يهتم بدراسة علاقات المعنى بين الأفعال الخطابية/الكلامية speech acts التي يتكون منها الخطاب المحكي؛ وأخيرا علم التداول pragmatics الذي يعنى بدراسة كيفية استخدام اللغة في سياقات خطابية مختلفة وتأثير علاقة المتحاورين والسياق في فهم مجمل الخطاب.

والترجمة وثيقة الصلة بعلوم إنسانية أخرى. فعلم اللغة الاجتماعي sociolinguistics الذي يعنى بتأثير السياق الاجتماعي في استخدامنا للغة، سواء في المجتمع نفسه أو في مجتمعات متجاورة له تأثير في نظريات الترجمة. ويمكن للمترجم أن يستفيد أيما استفادة من إلمامه الجيد بنظريات النقد الأدبي وغير الأدبي literary and non-literary criticism، حيث إن على المترجم أن يقوم بعملية تقييم للنص حتى يمكنه من تفسيره تفسيرا صحيحا، ومن ثَمَّ فهمه فهما دقيقا قبل البدء في ترجمته. وفيما يتعلق باختيار المفردات والتراكيب النحوية يمكن للمترجم أن يفيد من علمي المنطق والفلسفة.

فمعرفة المترجم بعلم المنطق تمكنه من تقييم صحة الفرضيات presuppositions التي تمثلها جمل النص؛ كما تؤدي معرفته بعلم الفلسفة إلى تمكنه من سبر معاني المفردات في سياقاتها المختلفة، كما يقول ويتجنشتاين [12]، كما أن تقسيم أوستن [13] للجمل كجمل وصفية وأخرى تؤدى أفعالاخطابية speech acts محددة، مما يعرف المترجم بوظيفة المفردة والجملة في السياق المستخدمة فيه. وأخيرا تتأثر الترجمة بعلمي التاريخ والجغرافيا، حيث إن معرفة المترجم بالسياق التاريخي لعبارة ما يمكنه من نقلها إلى لغة أخرى بدقة كبيرة، فمثلا نجد أن عبارة the old guard قد وردت في سياق تاريخي معين وتطور معناها الذي لم يعد المعنى القديم نفسه والذي لا زال يستخدم بسبب الترجمة الحرفية الخاطئة «الحرس القديم» «الذي يتردد كثيرا في وسائل الإعلام العربية ويرددها الساسة والمثقفون العرب هذه الايام» الذي نتج من عدم دراية المترجم بالسياق التاريخي للعبارة الأجنبية. كما تختلف معاني العبارات من مكان لآخر وفق ظروف المناخ، فها هو ذا شكسبير يشبه محبوبته «بيوم صيف» لأن فصل الصيف هو فصل الدفئ الذي ينتظره الإنجليز في حين ينتظر العرب فصل الربيع للشئ نفسه، وبينما نقول إن الخبر «أثلج صدورنا» يقول الفرنسيون «سخن صدرنا» لاعتبارات مناخية أيضا.

ولكي يتسنى لنا التعرف على دور الترجمة كأداة تعليم وتعلم واتصال وتواصل بين الثقافات المختلفة يجب أن نتعرف على ماهيتها ومنهجيتها، ومؤهلات المترجم، وأثر الترجمة الخاطئة في عملية الحوار مع الآخر، من بين أمور أخرى لا يتسع المجال للتطرق إليها هنا لضيق المساحة.

ماهية الترجمة وأسلوبها

على مدى تاريخ الترجمة الطويل، كانت هناك جملة من القضايا، ولا يزال بعض منها، مثار جدل بين علماء الترجمة ومنظريها. فمثلا، كان الجدل في القرن التاسع عشر يدور حول قضيتين رئيستين: إمكانية ترجمة النصوص الأدبية وخاصة الشعر، والثانية، كيفية «أسلوب» الترجمة. أما بالنسبة إلى القضية الأولي فقد ذهب بعض

من العلماء الى حد الاعتقاد أن ترجمة الأعمال الأدبية، وخاصة الشعر مستحيلة untranslatable. لكن هذه القضية تم حسمها حين ظهرت ترجمات للإنجيل وللكثير من الأعمال الأدبية شعرا ونثرا بلغات مختلفة.

أما بالنسبة إلى أسلوب الترجمة، فكان السؤال هل يجب أن تكون الترجمة حرفية أو حرة؟ فالترجمة الحرفية literal translation، تعني ترجمة النص كلمة كلمة وفق ترتيبها في النص الأصلي، بصرف النظر عن الاختلافات في التراكيب النحوية بين اللغتين، وهذا يتطابق مع أسلوب مدرسة يوحنا بن البطريق كما أسلفنا. وكثيرا ما أدى هذا الأسلوب إلى ترجمات مغلوطة أو مشوهة كما سنرى لاحقا. أما الأسلوب الثاني فهو الترجمة الحرة free translation، التي لا تعنى حرية المترجم في الترجمة كما يشاء، بل تعني نقل معنى النص الأصلي بصدق ودقة، مع حرية تعديل التراكيب وأساليب الصياغة وفق قواعد اللغة الهدف. وهذا الأسلوب يتفق مع أسلوب مدرسة حنين بن إسحق، مما يبين أن علماء الترجمة العرب قد سبقوا أقرانهم الغربيين بأكثر من ألف سنة في هذا المجال.

لكن الترجمة أضحت علما في بداية القرن العشرين، حيث أصبح لها منهجية علمية تعتمد على الملاحظة والتجربة واستخلاص النتائج. وبالرغم من ذلك، لا يوجد حتى الآن تعريف محدد يتفق عليه كل علماء الترجمة. لكن، وعلى الرغم من التباين بين التعريفات العديدة، نلاحظ أنها تكاد تجمع أن الترجمة هي عملية نقل معنى نص ما «كما قصده صاحبه» من لغته الأصلية «اللغة المصدر» إلى لغة أخرى «اللغة الهدف» بحيث يكون للنص المترجم تأثير في المتلقي مماثل لتأثير النص الأصلي في متلقيه [14]. يحتوى هذا التعريف على كلمتين رئيستين لا زالتا مثار جدل، وهما «المعنى» و«تأثير النص في المتلقي». وهذا التعريف يطرح قضيتين جوهريتين، هما قضية المعنى وقضية تأثير النص في المتلقي. أما بالنسبة إلى قضية المعنى فهي لا زالت من المسائل الشائكة التي تثير كثيرا من الجدل بين علماء الترجمة ومنظريها. فعندما نتكلم عن مسألة المعنى، يبرز السؤال: مم يتكون معنى النص؟ هل يتكون من مجمل معاني مفرداته

وجمله، كما وردت في سياقه اللغوي فقط، أو أن هناك مكونات أخرى تتعدى ذلك السياق؟ قطعا هناك مكونات للمعنى تتجاوز حدود النص. فمعنى النص يتكون من معاني المفردات والجمل التي وردت في سياقه اللغوي co-text، بما تحمله من إيحاءات دلالية خاصة connotations أضافها كاتب النص إلى معاني تلك المفردات المعجمية والاستخدامات المجازية لبعض المفردات والعبارات. كما يتأثر معنى النص بالسمات المحددة لسياقه الخطابي context of situation والتي تشتمل على زمان ومكان صدور النص، وعلاقة المشاركين «المتكلم - السامع/ الكاتب – القارئ» بعضهم ببعض، والسياق الثقافي الاجتماعي socio-cultural context المحدد للنص، من بين أمور أخرى. وذهب فريق إلى أن السياق الخطابي هو ما يجعل مفردة واحدة أو مجموعة جمل تشكل نصا. فكلمة «قف» بمفردها تشكل نصا لأن لها معنى في سياقها المحدد «كإشارة مرور على أحد التقاطعات» يفهمة السائق «المتلقي» ويجعله يقوم بفعل شئ ما «التوقف» [15]. كما يمكن أن يكون النص كتابا في مثل ضخامة «الجنة المفقودة» للكاتب «ميلتون» [16].

لكن ما يجعل قضية المعنى تشكل تحديا كبيرا للقارئ والمترجم في آن واحد، هو وجود عدة أنماط من المعاني، أهمها: المعنى الحرفي/ المعجمي «dictionary/ literal meaning» والمعنى السياقي «contextual meaning» . وما يزيد مسألة المعنى تعقيدا أن لبعض المفرادات عدة معان في المعجم. فمثلا ، للكلمة الإنجليزية bank المعاني التالية: مصرف مالي financial institution، وضفة النهر أو البحر river bank، صف من أشياء تؤدي ذات الوظيفة bank of TV monitors، هذا إلى جانب معنى المفردة ذاتها كفعل I bank on you «أعتمد عليك». كما أن معنى المفردة «مصرف مالي أو بنك» يتفرع منه عدة أنماط من البنوك مثل «بنك المعلومات» و«بنك الدم» و«بنك الجينات»، إلخ، والتي تشترك كلها في فكرة التخزين. ويسمى المعنى المعجمي أيضا المعنى الدلالي denotative meaning أي المعنى الذي يدل على الشئ الذي ترمز إليه المفردة في العالم الخارجي، فمثلا كلمة «حصان» تشير إلى الحيوان الحقيقي المعروف بتلك التسمية.

لكن المعنى السياقي يعبر عن المعنى الذي قصده الكاتب أو المتحدث بما قد يضيفه من دلالات لا يتضمنها المعنى المعجمي للمفردة، وهو ما يعرف بالمعنى الوظيفي functional meaning أو المعنى الذي قصده الكاتب أو المتحدث، ولهذا فهو أيضا يسمى speaker meaning. فمثلا، كل من لفظتي friend و comrade تعني علاقة الصداقة التي تربط بين أفراد أو دول، في حين تعبر المفردة الأولى عن المعنى المحايد للكلمة، للمفردة الثانية إيحاءات سياسية؛ لأنها الكلمة التي يستخدمها معتنقو المذهب الشيوعي فيما بينهم.

ولأن معنى المفردات والعبارات يتأثر بعوامل كثيرة، برزت قضية تتصل بها اتصالا مباشرة، ألا وهي مسألة المكافئ الدلالي equivalence، أي استخدام كلمة في اللغة الهدف تعطي معنى مفردة ما في اللغة المصدر. وهناك نوعان من التكافؤ الدلالي وهما: التكافؤ في الشكل بصرف النظر عن معنى المفردة في سياقها الخطابي وهو ما يعرف بالإنجليزية بـ formal equivalence «ترجمتي». والنوع الثاني من التكافؤ هو التكافؤ الوظيفي functional equivalence الذي يعود إلى وظيفة المفردة في سياقها المحدد. فمثلا، إذا استخدمنا النوع الأول فإننا سنترجم تعبير cats and dogs في الجملة It's raining cats and dogs «قططا وكلابا»، وهذا مناف للعقل والمنطق. هنا على المترجم أن يلجأ إلى استخدام النوع الثاني من التكافؤ ويترجم العبارة نفسها بـ«إنها تمطر بغزارة»، والتي تعكس المعنى الصحيح في ذلك السياق.

وحتى لا يختلط الأمر على القارئ، كما هو الحال في كثير من المقالات والكتب حول قضيتي التكافؤ الدلالي و أسلوب الترجمة، نقول إن القضيتين منفصلتان ومتصلتان في آن واحد. فبصرف النظر عن الأسلوب المستخدم في الترجمة، سواء أكانت الترجمة الحرفية «حرفية المعنى وليس التركيب» أم الحرة» غالبا ما يلجأ المترجم إلى استخدام أي من نوعي التكافؤ الدلالي الذي تقتضيه طبيعة النص وهدف الترجمة. ففي ترجمة المثل الإنجليزي Necessity is the mother of invention «الحاجة أم الاختراع»، استخدمنا الترجمة الحرفية وكذلك التكافؤ الشكلي، في حين عند ترجمة

المثل The spirit is willing but the spirit is weak «العين بصيرة واليد قصيرة»، استخدمنا الترجمة الحرة والتكافؤ الوظيفي. كما يمكن أن يضطرنا السياق إلى استخدام النوعين السابقين من التكافؤ، كما في ترجمة المثل A fault confessed is half redressed «الاعتراف بالذنب فضيلة» حيث استخدمنا التكافؤ الشكلي لترجمة عبارة a fault confessed «الاعتراف بالذنب»، لكن لترجمة معنى بقية الجملة اضطررنا إلى استخدام المعنى الوظيفي «فضيلة» لعبارة half redressed التي لا تعني ذلك في المعجم، لكن المكافئ الدلالي حسب استخدامها في هذا السياق اضطرنا إلى ذلك. والحالة هذه، على المترجم إذًا أن يتبين المعنى المقصود للمفردة أو العبارة أو الجملة في السياق المستخدمة فيه والذي يحدد أسلوب الترجمة ونوع التكافؤ الدلالي الذي يجب استخدامه.

لكن السؤال الذي يطرح نفسه في هذا السياق هو: ماذا لو لم يكن لمفردة أو تعبير ما في اللغة المصدر معنى مكافئ في اللغة الهدف؟ وماذا لو لم يكن بالإمكان استخدام المكافئ الوظيفي لها؟ وهذا يحدث كثيرا بسبب انتماء اللغتين إلى ثقافات متباينة. ويزداد هذا التباين حجما إذا كانت اللغتان تنتميان إلى عائلات لغوية مختلفة الأصل كما هو حال اللغتين العربية والإنجليزية، حيث تنتمي العربية إلى عائلة اللغات السامية، أما الإنجليزية فهي إحدى اللغات الألمانية، وهي فرع من اللغات الهندية-الأوروبية. فهناك، على سبيل المثال لا الحصر، مفردات عربية لا يوجد لها مكافئ في الإنجليزية ومثل كلمات: «محرم، وزكاة، وضرة، إلخ»، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الكلمة الإنجليزية cohabitation لما لهذه المفردات من دلالات ثقافية ودينية في الوقت نفسه في الثقافتين. في هذه الحالة لا بد وأن يلجأ المترجم إلى استخدام استراتيجية «الترجمة الوصفية» أي تفسير معنى المفردة بوصفها في جملة أو أكثر ضمن سياق النص «خاصة إذا كان الوصف قصيرا» أو يفرد له مساحة في الهامش. فمثلا يمكن ترجمة معنى كلمة «محرم» وفق هذه الاستراتيجية على النحو الآتي: a blood-related male adult Muslim who accompanies a Muslim woman to the holy places in

Mecca and Medina.. أما كلمة cohabitation فيمكن ترجمتها على هذا النحو: «أن يعيش رجل وامـرأة أو شاب وفتاة في مكان واحد عيشة الأزواج دون رابط شرعي بينهما».

الترجمة كأداة لتعلم اللغات وتعليمها

يقول نيومارك إن على المترجم أن يكون قارئا وكاتبا جيدا. وهذا يتطلب في الأساس أن يتمتع المترجم بمهارات عالية في القراءة والكتابة. فمهارات القراءة تمكنه من سبر غور معنى النص، وتصحيح أية أخطاء في معلوماته، ومهارات الكتابة تمكنه من صياغة في اللغة الهدف بأسلوب بياني رصين يوحي للمتلقي أنه بصدد نص كتب «أصلا» باللغة الهدف ولم يترجم عن لغة أجنبية، وهذه أفضل الترجمات، التي لا يحسنها إلا من تأتى له التمكن من ناصية اللغتين تمكنا يكاد يماثل تمكن كاتب النص المصدر.

في الواقع، يمكن للترجمة، إن تم تدريسها بطريقة صحيحة، أن تشحذ مهارات الطالب اللغوية الأربعة: الاستماع، والمحادثة، والقراءة، والكتابة. أما مهارتا الاستماع والمحادثة فيمكن شحذهما بممارسة الترجمة الفورية، حيث يعتمد نجاح الترجمة الفورية، في الأساس، على الاستيعاب الدقيق لمعنى النص المسموع ونقله بدقة حتى يكون له التأثير نفسه في المتلقي «المستمع». ولكي يتأتى هذا للطالب عليه التمتع بمهارات استماع ومحادثة عالية تتطلب مراسا كبيرا. ولإدراك هذه الغاية، يحتاج طالب الترجمة الفورية إلى الاستماع المكثف إلى نصوص ليست متنوعة في المضمون فقط، بل وفي اللكنات واللهجات والسرعة والتنغيم الصوتي والتدرب على ترجمتها، حتى يكون قادرا على فهم معنى تلك النصوص. كما يجب أن يتم ذلك في أماكن مختلفة «استوديو، وقاعة مؤتمرات، وشارع، ومكان تسوق، إلخ» تماثل الأماكن التي تحدث فيها الترجمة الفورية عادة، حيث لا تحدث كلها في مكان هادئ، خال من أي أصوات خارجية. ومن الأهمية بمكان، أن يتعلم الطالب كيف يربط النص الذي يسمعه بنص أو نصوص سبق وأن سمعها أو قرأها، وهذا ما يعرف بالتناص intertextuality

أي تفسير نص في ضوء نص سابق.

أما مهارة المحادثة فلا شك أنها تشحذ بممارسة الترجمة الفورية في سياقات ومواضيع متنوعة. من شأن الترجمة الفورية لعدة متحدثين أن تعرّف المترجم بعناصر التخاطب لدى أبناء تلك اللغة مثل كيفية البدء في الحديث، والتناوب بين المتحادثين على أخذ وإعطاء الدور في الحديث، واستخدام لغة الجسد، والمسافة بين المتخاطبين، والنظر في العين، إلخ. هذا بالإضافة إلى معرفة الاختلافات اللغوية والخطابية بين النصوص الشفوية والمكتوبة. فمثلا، عادة ما يستخدم المتخاطبون باللغة الإنجليزية أشباه جمل أو كلمات مفردة بدل الجمل التامة في اللغة المكتوبة. وتستخدم في المحادثة تعابير وأصوات معينة تخدم أغراضا خطابية معينة، مثل wow, you know، umm ، er. كما أن تلك السمات تعرف المترجم بالفوارق الثقافية- الاجتماعية بين اللغتين.

أما الترجمة التحريرية وهي النمط الذي يتم التركيز عليه في برامج الترجمة في الجامعات العربية فمن شأنه أن يعلم المترجم الشيء الكثير إضافة لما ورد سابقا، شريطة أن تدرس بشكل صحيح! فعملية الترجمة تمر بمراحل ثلاث هي: ما قبل الترجمة، وفي أثناء الترجمة، وما بعد الترجمة. أما قبل الترجمة، فيجب قراءة النص أكثر من مرة للتأكد من فهم معناه كما قصده كاتبه. وبعد القراءة الأولى أو الثانية، يتم تحديد المفردات أو التعابير التي تشكل مشكلات في نقل النص إما بسبب معناها أو تركيبها. وحل المشكلات تلك يتطلب استخدام استراتيجيات معينة. فالمشكلات الناجمة عن معاني بعض المفردات أو التعابير يتم حلها إما عن طريق السياق الذي تحدث فيه، أو استخدام المعجم الثنائي أو تحليل المفردة إلى مكوناتها. فمثلا، يمكن تقطيع كلمة intertextuality إلى أربعة مقاطع هي على التوالي: inter/ text/ ual/ ity ومن أجل معرفة معنى الكلمة الكلي، يجب معرفة معنى كل مقطع من هذه المقاطع. ولما كان معنى inter «ما بين»، و text «نص»، و «al«u– «علامة الصفة»، و –ity «علامة الاسم»، يمكن تخمين معنى الكلمة على أنها تعود إلى شيء يتعلق بالنصوص المختلفة. إن هذه

المعرفة غير دقيقة للمفردة كافية من أجل الاستمرار في القراءة دون توقف ومعرفة معنى النص العام.

يتطلب الفهم الدقيق لمعنى النص إلى جانب معرفة معـــاني المفـــردات والجمل، تحليل النص للتعرف على أسلوب الكاتب في نظم تلك المفـــردات والجمل في وحـــدات تركيبيـــة structural moves [17] ، ثم صهر تلك الوحدات في هيكل واحد يشكل التركيب الكلي للنص، والذي يجب أن يتواءم والغرض البلاغي العام للكاتب. لا شك أن التعرف على كل هذه العناصر وخلال نصوص متنوعة الأغراض يمكن المترجم من التمرس بأساليب صياغة نصوص مشابهة في تلك اللغة. يجب التنويه هنا بأن عملية التحليل هذه يجب أن تسبق بدء عملية الترجمة مهما كانت لغة النص.

وفي أثناء عملية الترجمة، يحرص المترجم على أن يستخدم أساليب الصياغة التي تستوجبها اللغة الهدف وهي تلك التي يتوقعها القارئ. لكن عليه مراعاة أن تخدم كل وحدة تركيبية الغرض المقابل نفسه في النص المصدر؛ أي إذا كان التعبير الإنجليزي، مثلا ، يقصد به مجرد إعطاء معلومة، أو التوصية باستخدام شيء ما، أو الذم أو المديح أو التهديد، إلخ، فيجب أن تخدم العبارة نفسها الغرض نفسه في النص الهدف. هذا، ويجب أن يخدم النص الهدف في مجمله الغرض البلاغي نفسه للنص المصدر؛ أي أن يكون نصا سرديا أو أدبيا أو جدليا أو إرشاديا.

وفي مرحلة ما بعد الترجمة، تأتي عملية تنقيح النص التي ربما اقتضى الأمر إلى استبدال مفردة أخرى بتلك المفردة أو إعادة صياغة بعض الجمل، أو استخدام أسلوب أكثر رصانة، إلخ.

مؤهلات المترجم ومدرس الترجمة

من هذا السرد الموجز لدور الترجمة كأداة تعلم وتعليم اللغة الأم واللغات الأجنبية، وعلاقتها بالعلوم الإنسانية الأخرى، يجب أن تتوافر في من يقوم على أمر الترجمة وتدريسها مؤهلات وخبرات خاصة. فكما ذكرنا، فإن تحدث لغتين أو أكثر لا يؤهل الشخص بالضرورة أن يمارس الترجمة. هذا ما يؤكده أحد أعلام الترجمة العرب

المحدثين «طلعت الشايب» يقول: إنه «ليس كل من تعلم اللغة يصلح لأن يكون مترجما، فالترجمة هي تفاعل بين ثقافتين، تفاعل بين حضارتين، المترجم الذي لا يجيد الثقافتين ولديه خلفية ثقافية من الثقافتين التي ينقل منها وإلى الثقافة الأخرى، لا يستطيع أن يقوم بتوصيل العمل على النحو المطلوب» [18]. وتشهد ميادين الترجمة وتدريسها هذه الأيام الكثيرين ممن لا دخل لهم فيها من قريب أو بعيد، وكأن فاقد الشيء أصبح يعطيه!

وقضية التخصص بالنسبة إلى المترجم قضية بالغة الأهمية. فتجد في الغرب من يترجم النصوص القانونية أو التجارية أو الأدبية فقط. لكن الجدير بالذكر في بلادنا أن معظم المترجمين في بلادنا يترجمون كل أنماط النصوص دون التخصص في أي منها في أغلب الأحيان! إن من أبجديات الترجمة أن يكون المترجم على دراية جيدة بثقافة اللغة المصدر ومتحدثيها، وكذلك معرفية علمية بموضوع العمل المراد ترجمته. لهذا كان «عادل زعيتر» رحمه الله يثقف نفسه بالقراءة المكثفة حول موضوع ذلك العمل قبل البدء في قراءته. فإن من شأن عملية التثقيف هذه أن تساعد المترجم على معرفة السياقات الثقافية-الاجتماعية والحضارية والبيئية المميزة للنص المصدر، كما سيرد لاحقا. أما ترجمة الأعمال الأدبية فإنها تتطلب من المترجم أن يكون لديه حس أدبي مرهف، ومعرفة بالأنماط الأدبية المختلفة وتمرسٌ في أساليب الصياغة اللغوية لنصوص مختلفة الأنماط. وأخيرا وليس آخرا، على مدرس الترجمة أن يكون وأيضا متخصصا في تدريس إحدى المواد «الصحفية، والتجارية، والقانونية، إلخ.» حتى يمكنه مع مزيد من الخبرة من تطوير منهاج تلك المادة وأسلوبه في تدريسها. وأهم من ذلك كله، أن يكون ملما بنظريات وأساليب ومنهجية ومدارس الترجمة، وعلى اطلاع دائم على كل ما يستجد في علم الترجمة، وأن يسهم في تطوير علم الترجمة بإصدار الأبحاث العلمية والمشاركة في المؤتمرات والندوات التي تعقد حول الترجمة. عند مراعاة هذه الأمور وغيرها وهي كثيرة، لا يمكن حصرها في هذه العجالة، تصبح الترجمة فنا وعلما ومهارة تسهم إسهاما كبيرا في عملية التواصل

والاتصال بين الشعوب المختلفة بلغاتها وثقافاتها وآدابها المختلفة.

هكذا يمكن للترجمة، إن تم تدريسها بشكل صحيح، أن تشحذ المهارات لطالب الترجمة أو للمترجم، وتمكنه من أساليب تحليل وفهم وصياغة النصوص في اللغتين المصدر والهدف.

دور الترجمة في حوار الثقافات

تُعَدُّ الترجمة أحد أهم المؤشرات على نهضة الأمم الثقافية، وسعيها إلى معرفة الآخر وطرائق تفكيره، وكلما كان إنتاج أمة ما من الأعمال المترجمة غزيرا، كان إسهامها في علمية حوار الثقافات أكثر فاعلية. ولقد رأينا كيف مكنت إسهامات المترجمين العرب السابقين من حفظ الموروث الإنساني للحضارات القديمة وإيصاله إلينا؛ بل إن نقل هذا الموروث إلى اللغات الأوروبية الحديثة هو الذي أسس للثورة العلمية والتكنولوجية التي يشهدها العالم هذه الأيام. ورغم ذلك الإرث العظيم للسلف من المترجمين، أصبحنا الآن من أقل الأمم إسهاما في عملية الترجمة. ويكفي أن نعلم أن أمريكا تنتج 10 آلاف كتاب ووثيقة مترجمة يوميا، والكيان الصهيوني 3000 كتاب سنويا، وروسيا المنهكة اقتصاديا 40 ألف كتاب، والعالم العربي مجتمعا 300 كتاب معظمها كتب أدبية [19].

وحتى تؤدي الترجمة دورها الفاعل في حوار الثقافات المختلفة، يجب أن تفيد الأمم مما يترجم، بحيث لا يكون الهدف من الترجمة التعرف على لغات وثقافات الآخر لمجرد العلم بالشيء فقط، وإنما أيضا من أجل إثراء اللغات والثقافات الهدف والمصدر والتعرف على أساليب الخطاب التي يستخدمها الناس على اختلاف لغاتهم وثقافاتهم حتى يمكنهم التحاور بشكل فعال. ويتمثل الإثراء اللغوي في عملية اقتراض المفردات والتعابير المختلفة وهو ما يسمى بالإنجليزية lexical borrowing من لغة لأخرى. فمثلا نجد أن بعض المفردات العربية قد دخلت اللغة الإنجليزية ، مثل: algebra, alcohol, algorithms, sugar, etc.؛ كما دخلت حديثا بعض المفردات الإنجليزية إلى اللغة العربية مثل: تلفزيون، وراديو، وتلفون، وكمبيوتر، وإنترنيت،

إلخ. وهناك عبارات كاملة يتم تبنيها بفضل الترجمة، ومنها ما شاع هذه الأيام بين أبناء العربية، مثل : «سياسة العصا والجزرة»، و«الحرس القديم»، و«غسيل/ تبييض الأموال»، إلخ.

وتتمثل عملية التلاقح الثقافي في تأثير ما يترجم من الأعمال الفكرية والأدبية والعلمية، وحديثا الأعمال المرئية والمسموعة من أفلام ومسلسلات، وعروض تلفزيونية مختلفة على أبناء اللغة الهدف. ولقد بتنا نلاحظ مدى تأثير مثل هذه الأعمال، سلبا و إيجابا، في أساليب التخاطب والمعيشة والملبس والمأكل، بل والكثير من عاداتنا الاجتماعية العربية. ودائما ما يكون التأثير من قبل ثقافة الأمم القوية سياسيا واقتصاديا في ثقافة الأمم الضعيفة، كما سيرد لاحقا. لهذا نجد أن استخدام بعض المفردات والتعابير الإنجليزية في أثناء التخاطب بالعربية قد أضحى أمرا شائعا. هذا بالإضافة إلى ارتداء الملابس الأوروبية والأمريكية، وتناول الوجبات الغربية السريعة، إلخ. لكن في المقابل هناك آثار إيجابية لعملية التلاقح الثقافي التي تلعب الترجمة دورا مهمًّا في تطويره. ففهم الثقافات المختلفة عبر ترجمة أمهات الكتب الأدبية والفكرية والعلمية يؤدي إلى معرفة فكر الآخر وطرق معيشته وأساليب الخطاب التي يستخدمها، والتي تمكننا من معرفة التحاور معه بالأسلوب الذي يفهمه. ومن فوائد الأعمال المترجمة في بداية القرن العشرين ما شهدته الحركة الأدبية العربية من ظهور أنماط أدبية جديدة كالرواية والقصة القصيرة والمقال النقدي؛ وفي الشعر العربي ظهر الشعر الحر والمنثور إلى جانب أنماط أخرى. كما ظهرت المسرحية الطويلة ومسرحية الفصل الواحد، إلخ.

لكن حتى تأتي الأعمال المترجمة ثمارها في رفد وتطوير الحوار الثقافي بين الأمم، يرى «عبدالسلام بنعبد العالي» [20] أن على الترجمة أن ترتبط «بإعادة التأويل والشرح»، وأنه «ليس هناك استثمار فعلي للنص المترجم» بل إنه يحلق من فضاء لفضاء حتى يعاد تأويله وشرحه وترجمته من قبل آخرين. ويعقد «بنعبد العالي» مقارنة بين الترجمة عند الفلاسفة العرب الأولين وعند المحدثين، ويجد أن الكثير من النصوص

القديمة «عربت دون أن تعرف امتدادا أو تثير انتباها أو تطرح إشكالا أو تلج شبكات جديدة من العلائق، أي أنها لم تدخل في حوار مع الثقافة المنقولة إليها. فكأنها نقلت من غير أن تترجم». لكننا نجد هذه الأيام عدة ترجمات للنصوص نفسها، مما يبين أن الفلاسفة العرب المحدثين لديهم ولع «بالاستئناس المتواصل بالأصول التي ننقلها والمراجعة المستمرة لما نترجمه على قلته». لكن تعدد الترجمات، وفق «بنعبد العالي» إما أن يكون «تعددا متناثرا» أو «تعددا متناسخا». ويتضح التعدد المتناسخ في العلاقة التي لا زالت تربط بين الفلسفة الفرنسية والنصوص الألمانية إلي نقلتها. لقد ترجمت هذه النصوص من قبل العديد من المترجمين الفرنسيين، لكنها كلها ينسخ بعضها بعضا لأن هناك دائما رجوعًا للنص الأصلي، أي «مراجعة وإعادة نظر». «فكأن النص الألماني لا بد أن يهاجر كي يبقى حيا في ترجماته المتلاحقة بحيث تغدو الترجمة هنا نوعا من الاستثمار الفكري».

لا يعتقد «بنعبد العالي» «أن الكيفية التي تمارس بها الترجمة عندنا توظف هاته الخاصية...لأنها ترجمات نادرة، وحتى إن وجدت متعددة للنص نفسه فلا مسافات فكرية تفصل بينها...إذ نلحظ أنها تتلاحق من غير أن تتفاعل لا فيما بينها، ولا مع النصوص المنقولة والفكر المترجم، فليس هناك استثمار فعلي للنص المترجم».

فكأن تلك النصوص الأصلية نقلت من غير أن تترجم. إن ما حدث في الماضي يتكرر حاليا حتى بتنا «نكتب كي نترجم، مثلما أننا نترجم كي نكتب». فهناك من الكتاب من يفكر في ترجمة نصه بعد الانتهاء منه، وعليه فهو يكيفه لهذه الغاية.

وحتى تكون الترجمة منتجة، وتؤدي إلى خلق القرابة لا تكريس الغرابة، وتنعش الفكر لا تدفعه إلى الخمول علينا أن نقلب علائق القوة التي تربطنا بالآخر. وهذا لن يتم إلا بالتحرر من فكره والتحرر من فيزياقيات الترجمة. ندعو هنا ليس إلى التحرر من الأصل ولكن إنتاج ترجمة تتحول إلى أصل، أي ترجمة ما تفتأ تتعلق بأصولها، وما تفتأ تراجع ذاتها، ترجمة حوارية تستثمر النص وتعيد إنتاجه، بالرجوع إلى الأصول والاستئناس بها، ترجمة لا ترمي إلى إلغاء الاختلاف بل توظيفه، ترجمة لا

تتوخى أساسا خلق القرابة وإنما تكريس الغرابة، ترجمة تنعش الفكر وتحوله وتشق له دروبا جديدة وتفتح له آفاقا مغايرة، فتسمح للنصوص بأن تبقى وتدوم عندما تطير وتهاجر. عندئذ تتلاقح الأفكار والثقافات المختلفة ويثري بعضها بعضا، ويدفع بعلمية التواصل والاتصال إلى الأمام من أجل عالم يسوده التفاهم المبني على المعرفة الصحيحة للآخر.

ومثل أي شيء آخر هذه الأيام، تتأثر عملية الترجمة بتوازن القوى، فكثيرا ما تفرض الأمم القوية مفاهيمها على الأمم الأخرى. وتسير وتيرة هذه العملية صعودا وهبوطا حسب تأثير الأمة في الأحداث الجارية. ولا أدل على ذلك من استخدام وسائل الإعلام الغربية لمصطلح «انتفاضة» لطرافته وحداثة الخبر. فكلمة انتفاضة تعني «هزة/ رعشة»، لكنها تعني في المصطلح حركة شعبية تناضل من أجل رفع الجور وإحقاق الحق، وكان أن استخدمت لأول مرة بهذا المعنى الاصطلاحي إشارة إلى نضال الشعب الفلسطيني. لكن وسائل الإعلام الغربية أبدلت بمصطلح الانتفاضة مصطلح «uprising» وذلك لأمرين: الأول، فقدان الخبر أهميته عندهم، والثاني، عدم توازي الجانبين حضاريا وتقنيا وقوة. وفي المقابل، عندما سمع الأمريكيون المصطلح الياباني «kamikaze» للمرة الأولى إبان الحرب العالمية الثانية، استخدموه في حينه مع مقابل إنجليزي لتفسيره «suicide air attack» ثم سرعان ما أسقطوا التعبير الإنجليزي وأبقوا على اللفظ الياباني فصار جزءا من المفردات الإنجليزية اليومية، ذلك أن اليابان كانت ندا حضاريا وعسكريا قويا لهم آنذاك.

كما يمكن أن تكون الترجمة سلاحا ذا حدين في هذا الحوار. فمن جهة، يمكن أن تكون وسيلة للتعرف على الآخر وتعريفه بلغتنا وثقافتنا وحضارتنا، وهذا ما يؤدي إلى تطوير اللغات والثقافات؛ ومن جهة أخرى، يمكن أن تؤدى الترجمة إلى تشويه صورة الآخر أو صورتنا لديه، سواء أكان ذلك عن قصد أم عن جهل، كما يجري هذه الأيام في بعض الدول الأوروبية والأمريكية من تشويه لتراثنا وحضارتنا وديننا. لكن يحدث أن تكون الترجمة مغلوطة إما بسبب جهل المترجم بمعاني ودلالات اللغة، أو بسبب

اتباع الترجمة الحرفية التي تؤدي في أحيان كثيرة إلى ترجمة خاطئة، ومهما يكن من أمر ففي هذه الحالة تؤثر الترجمة سلبا في عملية الحوار الثقافي. فهناك نسخ من التوراة والإنجيل تم تحريفها عند ترجمتها عن اللاتينية بقصد غرس مفاهيم تتفق ومآرب مترجميها أو المؤسسات التي يعملون لصالحها. وحدث أن عمل بعض المترجمين في أثناء عملية ترجمة القرآن الكريم أو السنة المشرفة إلى اللغات الأوروبية إلى تحريف الكلم عن موضعه أو صياغة بعض الآيات والأحاديث لتتفق مع ما جاء في ترجماتهم المحرفة لكتبهم المقدسة أو لتشويه القرآن والسنة النبوية المطهرة. لكن سرعان ما كان يكتشف التحريف وأي دس مشبوه؛ لأن القرآن والسنة تحفظها الصدور قبل صفحات الكتب.

ونظرا لحساسية الدور الذي تلعبه الترجمة في حوار الثقافات المختلفة، يجب إعادة النظر والتدقيق في الترجمات الكثيرة للكتب المقدسة بشكل خاص والكتب الأدبية والثقافية والعلمية بشكل عام. فمثلا هناك عدة ترجمات للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. فلماذا لا تكون هناك ترجمة واحدة تشرف على إصدارها مجموعة من أعلام علماء الفقه الإسلامي وعلماء اللغة من دول عربية وإسلامية مختلفة؟ إن من شأن ذلك أن يوحد فهم النصوص القرآنية لكل المسلمين على اختلاف لغاتهم الأم، كما أنه لا يدع فرصة لمغرض أن يؤول معاني القرآن الكريم أو أحاديث النبي «ص»، خاصة التي وقع فيها المترجم في أثناء عملية نقلها إلى لغات أجنبية، أو يحسب القارئ الغربي أن للقرآن نسخا مختلفة والعياذ بالله! وفي هذا السياق يطرح «خضر» [21] مفهوما جديدا هو «الترجمة الإجمالية» التي تتطلب «تحليل نصوص الكتاب «القرآن الكريم» كله كوحدة متكاملة ثم تجزئته إلى عبارات متشابهة النص أو متشابهة البنية اللغوية، ومن ثم ترجمة هذه التراكيب أو المباني اللغوية لاستعمالها كوحدات في أثناء الترجمة التفصيلية في مرحلة لاحقة.... هذا بالإضافة إلى إمكان اشتراك عدد من المتخصصين في اختيار الترجمة المناسبة بدل الانفراد برأي شخص واحد». ولتسليط الضوء على حجم هذه المشكلة، نورد أحد الأمثلة التي ساقها «خضر» لتوضيح اختلاف

ترجمة النص نفسه من مترجم إلى آخر وعند المترجم نفسه.

«فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين «الأعراف/ 78» »

Yusuf Ali: So the earthquake took them unawares, and they lay prostrate in their homes in the morning.

Pickthal: So the earthquake seized them, and morning found them lay prostrate in their dwelling abode.

Shaker: Then the earthquake overtook them, so they became motionless in their abode.

Kassab: Whereupon the quake took them and they fell dead in their land.

«فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين «العنكبوت/ 37» »

Yusuf Ali: Then the mighty Blast seized them, and they lay prostrate in their homes by the morning.

Pickthal: And the dreadful earthquake took them, and morning found them prostrate in their dwelling place.

Shaker: So a severe earthquake overtook them, and they became motionless in their abode.

Kassab: Wherefore a quake took them (by surprise), and they perished on their knees in their own houses.

يبين هذان المثالان الاختلاف في استخدام بعض المفردات التي تعود إلى الشئ نفسه من ترجمة إلى أخرى للمترجم نفسه ومن مترجم إلى آخر. لكن يجب توخي أقصى درجات الحذر قبل تعميم الترجمة الإجمالية على ترجمة معاني القرآن الكريم والسنة الشريفة؛ لأن مسألة إدراك المعنى الصحيح للألفاظ والتعابير المختلفة تحتاج إلى فهم لغوي وفقهي في آن واحد؛ أي المعرفة التامة بفقه الشريعة الإسلامية

بالإضافة إلى التمكن اللغوي الذي يمكن المترجم من نقل المعنى الصحيح إلى المعاني وفق سياقها الخطابي الذي تحدث فيه، والذي قد يختلف للمفردة نفسها من سياق إلى آخر.

وحتى يمكن للترجمة أن تسهم في حوار الثقافات بطريقة صحيحة وفاعلة لا بد أن يستوعب المترجم الفوارق بين اللغتين، المصدر والهدف، ليس فقط اللغوية منها، بل والثقافية-الاجتماعية والحضارية والجغرافية والتاريخية والأيدولوجية وحتى البيئية أيضا، لكي يستطيع أن يفهم خطاب الآخر ويستخدم خطابا يفهمه الآخر. فالجهل بأحد هذه الاختلافات يؤدي في كثير من الأحيان إلى ترجمة مشوهة وخاطئة. فمثلا، لو ترجم أحدهم تعبير «أم المعارك» إلى الإنجليزية بـ «mother of all battles»، فإن هذه الترجمة الحرفية ليست خاطئة وحسب، بل إنها تثير السخرية ولا تؤدي إلى فهم المعنى المجازي المقصود. الخطأ هنا أن المترجم لم يدرك المعنى المجازي أو الوظيفي للتعبير في لغته العربية وهو «المعركة الفاصلة/ الحاسمة»، ولهذا، فإن الترجمة الصحيحة للتعبير هو the decisive battle وهذا تعبير ورد في المعجم ,Gettysburg site of the final, decisive battle of the Civil War (Macmillan English Dictionary for Advanced Learners 2002:360). هنا نجد أن الترجمة الحرفية تؤدي إما إلى نص مثير للسخرية، أو في أحيان كثيرة، إلى فشل عملية التواصل، أو حتى التسبب في مشكلات ربما تؤجج النزاعات والكراهية بين الأمم. لذا فإن فهم المترجم لمعاني المفردات والجمل كما وردت في سياقها هو أهم خطوة في عملية الترجمة، كما أسلفنا. وفي حالة تعبير «أم المعارك» لا يحتاج إلى كثير جهد وإعمال فكر، لأن المعارك لا تنتمي إلى عائلة لها أب وأم وأخوة وأخوات!

يقول درويش [22]: إن المصطلحات السياسية تشكل «معضلة أساسية في العلاقات الدولية والمجالس السياسية والصراعات القومية والنزاعات الإقليمية وغيرها». وكثيرا ما تسببت هذه في تسليط الضوء على الهوة الكبيرة بين اللغات والحضارات والثقافات الإنسانية. وتظهر هذه الهوة في الترجمة؛ لأنها تبين «أبعاد الفهم الإنساني

لنواح كثيرة من اللغة سواء أكانت أصلية أم إضافية». تتغير استعمالات اللغة من مكـــان إلى آخر ومن زمن إلى آخر، فتكتسب بعض المفردات والتعابير ظلال معان ليست جزءا من المعاني الأصلية، ولا تستطيع المعاجم استيعاب هذه التغيرات التي تحدث دائما وبشكل متسارع. وأحد الأمثلة على التغير في اللغة العربية المعاصرة كلمة «إنجاب» التي تعنى أصلا ولادة النجباء فقط، لكنها أصبحت الآن تطلق على عملية إنجاب الأطفال سواء أكانوا نجباء أم لا، والذين، كما يقول درويش، أن شاءت لهم الأقدار أصبحوا مترجمين، ليسهموا في الفوضى اللغوية القائمة». ومثال آخر على تغير المعنى هو كلمة «زبانية» ومعناها الأصلي «ملائكة التعذيب» لأنهم يدفعون أهل النار إليها. لكن هذه المفردة اكتسبت بعدا سياسيا، وباتت تعني «أتباع النظام وجلاوزته وأزلامه».

كما تسهم الترجمة إسهاما كبيرا في ميادين الإعلام، حيث تحتل مكانة مهمة في نقل الخبر من قلب الحدث، «بل وفي اختلاقه أحيانا» [23] ولطالما اعتمدت القوى العظمى على وسائل الإعلام المؤثرة في ترويج للسياسات وأيدولوجيات معينة، ولتأليب الرأي العام، وفرض الهيمنة الحضارية واللغوية، إما لتغيير المواقف الفردية أو الجماعية من خلال تبني مواقف جديدة إزاء قضايا ومواضيع معينة. وتختلف أساليب التأثير لإقناع المتلقي عبر وسائل الإعلام المختلفة، ويصف براون [24] في كتابه المرجعي الشهير «أساليب الإقناع: من الدعاية إلى غسيل الدماغ»، وذلك باستخدام ما بات يعرف في العربية «بالصور النمطية وإظهار خصائص وصفات معينة حقيقية أو زائفة والمبالغة فيها عند الأفراد والجماعات، بل وسلخ الصفات الإنسانية عنهم واعتماد المفردات والألفاظ البديلة السلبية أو الإيجابية المشحونة بالعاطفة لتحل محل الألفاظ المحايدة والموضوعية، والانتقائية في إبراز الحقائق أو ما يعرف بتجزئة الحقيقة أو تشظية الواقع والكذب والتكرار والتوكيد وتحديد العدو وتحويل الغضب والعدائية نحوه، واللجوء إلى السلطة دون تحديد مصادرها «وقال خبراء في علم الجينات الوراثية: إن العرب بطبيعتهم ميالون إلى العنف والإرهاب...» ».

من وسائل عملية غسل الأدمغة والتأثير في المواقف تبني خطاب معين ومصطلحاته وترجمتها إلى العربية. ظهر ذلك جليا في استخدام تعبير «العمليات الاستشهادية» في مصادرها العربية من جهة و «العمليات الانتحارية» المترجمة عن التعبير الإنجليزي suicide operation فأصبحت الفضائيات والأرضيات تستخدم الاستشهادية تارة والانتحارية تارة أخرى، ثم اختفت عبارة الاستشهادية لأنها العبارة التي يفضلها المنتصر في الحرب الحضارية الإعلامية. وهناك ترجمات شائعة في وسائل الإعلام العربية تجلب الانتباه وتثير التساؤل، منها اعتماد التعبير «مشروع الشرق الأوسط الكبير» كترجمة للتعبير الإنجليزي «Greater Middle East Project»، فلماذا لم يستخدم المترجم العربي لفظة «الأكبر» وهو المولع بالحرفية؟ أليس هذا معنى الكلمة الأولى في المصطلح بلغته الأصلية؟ ولهذا وجدنا المترجمين العرب يترجمون مصطلحات مثل «عمان الكبرى» و «بيروت الكبرى» «Greater Amman، Greater Beirut» على التوالي! إن لفظ «الأكبر» يفيد المفاضلة ومنتهى الغاية. وقد يكون للفظ «الأكبر» مضامين إيجابية، أو ربما سلبية، فهناك «الشيطان الأكبر»! لعل استخدام «مشروع الشرق الأوسط الكبير» قصد منه التحاشي لربط هذا المفهوم بمفهوم «الشيطان الأكبر»! كما شغل بال المثقفين والإعلاميين العرب في الآونة الأخيرة بمصطلح «الجدار العازل» والسور السياج بين «fence» و «wall» فتارة هو الجدار العازل، ضمان للأمانة في نقل الخبر! وتارة هو «جدار الفصل العنصري»، والغريب هنا أن هذه الخيارات لكلمة «fence» هي أشد سوءا من «الجدار» لأن كلمة «fence» في الإنجليزية تعني سياجا لمنع المواشي والدواب من الدخول إلى منطقة معينة أو لاحتوائها في حظيرة مسيجة، نحو «fence off wild animals» لدرء خطر محتمل. كما أنه ليس لكلمة «سياج» صفة دائمة فقد تهب عاصفة فتقتلعه من أساسه، أو يزيله صاحبه لزوال الحاجة. أما الجدار فهو أصلب وأبقى.

وهكذا تتخذ النصوص المترجمة أشكالا مختلفة في عملية الترجمة، فمنها ما ينفخ فيها روحا جديدة تشابه الأصل إلى درجة كبيرة، ومنها ما يتحول إلى مسخ هزيل

ضعيف لا علاقة له بمقاصد النص الأصلي ولا بفضائه الفكري والحضاري، أو بالمحيط الجديد المغروس فيه. فبعض المترجمين العرب الحاليين تنقصهم المقدرة على فهم النصوص الأجنبية بمجمل أبعادها الدلالية والوظيفية والحضارية، كما يفتقرون إلى منهجية حديثة واعية وثابتة للنقل والتعريب والترجمة، مما يؤدي إلى دخول المعرفة المنقولة إلى اللغة بشكل مهترئ بما تحمله من تعابير مجازية واصطلاحية لا علاقة لها بالمقصود من الكلام الأصلي. فمن التعابير الأجنبية ما يفهم بداهة أن ترجم حرفيا، لشمولية المجاز الإنساني الذي تعبر عنه تلك التعابير، وكثير منها ما يخفق في تأدية المعنى المفصود، في الترجمة، لخصوصية المجاز وطرائق التعبير لغويا وثقافيا وحضاريا وحتى بيئيا. فمثلا يَعُدُّ «درويش [25] أن ترجمة التعبير الإنجليزي الشائع «carrot and stick policy» بـ «سياسة العصا والجزرة» ترجمة خاطئة لأنها لم تأخذ في الحسبان التطور الذي حدث على المفهوم الثقافي للتعبير عبر الحقب التاريخية المختلفة. وفي هذا السياق يؤكد «درويش» [25] أهمية «المحاكيات الحضارية» أو «الميمات» كما يسميها تشسترمان [26] التي تحدث إشكاليات كثيرة في نقل المعارف والعلوم من اللغات المصدرة للفكر والحضارة والمعرفة إلى اللغات المستوردة. فمن الثابت في علم التواصل أن التواصل لا يتم بين أفراد المجتمع الواحد إلا إذا كان بينهم ذاتية مشتركة وهو ما يعرف بالإنجليزية «intersubjectivity» التي تنجم عن المعرفة التي يشترك فيها المتواصلون أو المتخاطبون، وتنتقل في المجتمع الواحد عبر المحاكيات الحضارية (الميمات) فتتأصل فيه فكرا ووجدانا وثقافية ومعرفة عامة. وهذه المعرفة العامة تتألف من التجارب الإنسانية المشتركة بأبعادها النفسية والوجدانية والاجتماعية والحضارية التي تنطوي على المشاعر والعواطف والتطلعات والاستدلالات والعقائد التي يتشاطرها المتخاطبون بحيث تكون عندهم نظرة مشتركة إلى الوجود والحياة والمصير. فعندما استخدم الناطقون بالإنجليزية تعبير «carrot and stick» كانت بين المتخاطبين ذاتية مشتركة، تولدت خلال التفاعل التراكمي والزمني. وبذلك تحكمت في استجابة القارىء للكاتب، أو السامع، أو المتكلم عبر المتعارف عليه ضمن

المجتمع الواحد. فمن المعروف عند الناطقين بالإنجليزية أن الجزرة «carrot» تستعمل للترغيب والعصا «stick» للترهيب. ومنها المصطلح «to hold out a carrot»- فإما الطاعة وجزاؤها الجزرة، وإما المعصية وجزاؤها العصا. والعبد يقرع بالعصا. بيد أن الرسوم المتحركة التي أنتجها والت ديزني وغيره قد شوهت الصورة المجازية بتصويرها حمارا يركبه شخص يحمل عصا تتدلى من طرفها جزرة، فتشوه وصار «the carrot on the stick» وهو بمعنى الإغراء فقط، فالحمار يرى الجزرة ويشمها فيجدّ السعي في الوصول إليها فلا يستطيع الدنو منها، ولكنه لا ينفك عن تكرار المحاولة، لأنه حمار! وهذان التعبيران يستخدمان اليوم بدرجات متفاوتة في اللغة الإنجليزية، وبمعنى واحد أحيانا لالتباس الصورتين عندهم، لا سيما الأجيال المتقدمة التي ترعرعت على الرسوم المتحركة. وعند ترجمة التعبير ترجمة حرفية إلى العربية أسقط المترجم تلك الخصائص الحضارية والمعاني الضمنية للتعبير، إما لعدم درايته بها أو لصعوبة نقلها إلى اللغة الهدف أو لعدم استساغتها في الترجمة لما قد تحمله من دلالات ومضامين لم تكن موجودة في الأصل. فلفظ «الجزرة» له مضامين في اللغة العربية تختلف عن مضامينه الإنجليزية، فالعرب «لا يلوحون بالجزرة إغراء أو ترغيبا، لا للحمار ولا للإنسان، رغم أن لهم فيها مآرب أخرى». لكن «العصا» تستخدم كأداة للترهيب والتعنيف، إلى جانب استخداماتها الأخرى. وعليه فإن ترجمة ذلك التعبير بـ «سياسة الترغيب والترهيب»، أدق من الترجمة الشائعة. ومثل آخر على عدم دراية المترجم بالسياق التاريخي لتعبير ما هو ترجمة المصطلح old guard إلى العربية بـ «الحرس القديم»، وهذه ترجمة خاطئة لا تراعي المعنى المجازي للتعبير وسياقه السياسي والاجتماعي. فتاريخيا كان هذا المصطلح يطلق على طبقة سياسية أو اجتماعية محافظة، غالبا، ما تكون رجعية ترفض التجديد وتأبى التغيير. فهل هذا معنى المصطلح في اللغة العربية؟ بالعكس، فإن الحفاظ على القديم في العربية فكرة إيجابية، لذا قال العرب: احفظ قديمك فأنت لا تعرف جديدك. ولا يدوم لك إلا قديمك. ويقول المثل المصري العامي: مين فات قديمه تاه. وعليه فإن الترجمة

الصحيحة لمصطلح old guard هي «المحافظون». وهناك تعبير آخر شائع في وسائل الإعلام «دم بارد» كترجمة للمصطلح الإنجليزي cold blood. وهذه أيضا ترجمة حرفية خاطئة لم تأخذ السياق القانوني للمصطلح في الحسبان. والمقصود بالمصطلح الإنجليزي هو «القتل العمد/ مع سبق الإصرار/ بوحشية». وأخيرا وليس آخرا، يشيع في وسائل الإعلام وخاصة النشرات الاقتصادية تعبير «غسيل الأموال» أو «تبييض الأموال» كترجمة للتعبير الإنجليزي money laundering مما يوحي بأن الأموال قد اتسخت ولزم غسلها! والترجمة الحرفية هذه أفرغت المصطلح من سياقه القانوني والديني بالنسبة إلى القارئ أو المشاهد العربي. لو تريث المترجم قليلا وكلف نفسه عناء النظر في المعجم الإنجليزي الأحادي، لوجد أن معنى المصطلح ببساطة «إخفاء/ تمويه مصدر المال الحرام». لكن الإصرار على هذه الترجمة الحرفية المغلوطة لهذا المصطلح يمكن أن يكون رفضا لعَدِّ ذلك المال حراما! ولطالما شوه المترجمون العرب اللسان العربي بترجماتهم الحرفية والاعتباطية التي لا تراعي السياقات الثقافية والحضارية والمفردات والمصطلحات الأجنبية. خذ على ذلك مثلا، قول الرسول «ص»: «اليد العليا خير من اليد السفلى» والتي ترجمها معظم المترجمين العرب وغير العرب The upper hand is better than the lower hand وهكذا ضاع المعنى المجازي والأصلي المقصود، بل وزاد المترجم على ذلك بأن شوه المعنى المجازي للتعبير الإنجليزي the upper hand وهو الغلبة والهيمنة والسيطرة. وحتى تؤدي الترجمة المعنى المقصود من التعبير يمكن ترجمته It is better to give than to take.

لا شك أن مثل هذه الترجمات الحرفية التي غالبا ما تكون خاطئة لا تؤثر سلبا في عملية التواصل بين الثقافات فقط، بل إنها تزيد من تشويه صورة اللغة والثقافة المصدر، كما هو حال صورة العربي والمسلم في وسائل الإعلام الغربية بسبب بعض هذه الترجمات بصرف النظر عن كونها مغلوطة عن عمد أو جهل. تماما كما هو الادعاء بقصور اللغة العربية عن استيعاب التطورات العلمية والتكنولوجية الحديثة، فهذا أمر يرد على قائله حيث إن العربية قد استوعبت موروث اليونان والرومان

والفرس والهنود سابقا، كما أسلفنا. كما أن دلالات معاني المفردات تتطور عبر الزمن من المادي المحسوس إلى المجاز أو المعنوي، مما يثبت أن اللغة العربية ليست جامدة بل طيعة «تستجيب للجديد الوافد عليها، ... تقبله، وتساير مسيرته وفاء بحاجات أهلها، وهي دائمة التوثب والتطور بواسطة الاشتقاق والتعريب والنحت وتطور الدلالات» إلخ.

يتضح لنا من هذا العرض المقتضب أن هناك حاجة ماسة إلى تفعيل عملية الترجمة في عالمنا العربي. ومن أجل هذا الغرض، يجب تكوين هيئة رسمية لها خطة قومية واضحة تحدد ما يجب أن يترجم من أو إلى العربية وترخص للمترجمين المؤهلين فقط ممارسة الترجمة، وتوفر بنوك المعلومات برامج تحتوي على ترجمة متفق عليها للمصطلحات الثقافية والعلمية وغيرها التي ترد في الكثير من النصوص بالمعاني نفسها. هذا إلى جوانب أخرى من شأنها أن تعيد للترجمة العربية ألقها وإسهامها في تطوير الفكر الإنساني الذي، كما أسلفنا، نقل العالم من ظلام الجهل في العصور الوسطى إلى نور العلم في القرن الحادي والعشرين.

الهوامش والإحالات:

1 - Newmark, P. Approaches to Translation. London: Prentice Hall, 1988, P.3

2 – عز الدين نجيب، أسس الترجمة من الإنجليزية إلى العربية وبالعكس. القاهرة: مكتبة ابن سينا، 2951، ص 5

3 – المرجع السابق، ص 5

4 – محمد الديداوي، منهاج الترجمة بين الكتابة والاصطلاح والهواية والاحتراف. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ص 7

5 – المرجع السابق، ص 7

6 – المرجع السابق، ص 7

7 - Newmark, P. Approaches to Translation P.3

8 – منهاج الترجمة، ص 7

9 – انظر يحيى جبر، عادل زعيتر شيخ المترجمين العرب. نابلس: الدار الوطنية للنشر، 1996

10 - Jumpelt, R. W. (1961) Die Ubersetzung naturwissenschaftlicher und technischer Literatur, Langenscheidt. Berlin: Schoneberg

11 - Benjamin, W. (1923) 'The translator's task' in H. Arendt (ed.) (1970) Illuminations, London: Cape

12 - Wittgenstein, L (1958) Philosophical Investigations. Oxford: Blackwell

13 - Austin, J. L (1962) How to Do Things With Words. Oxford University Press

14 - Newmark, P. (1988) A Textbook of Translation. London: Prentice Hall

15 - de Beaugrande, R. (1980) Text, Discourse and Process. London: Longman

16 - Halliday, M.A. K. & Hasan, R. (1976) Cohesion in English. London: Longman

17 - Bhatia, V. K. (1993) Analysing Genre: Language Use in Professional Settings. London: Longman

18 - توفيق طه، هموم الترجمة إلى العربية، على الرابط التالي: http://www.alarabiyah.ws

19 - مسعود عبدالهادي، الترجمة والتأليف في العالم العربي، على الرابط التالي: http://www.alarabiya.ws

20 - محمد زكي خضر، الطريقة الإجمالية لترجمة معاني القرآن الكريم، على الرابط التالي: http://www.alarabiya.ws

21 - علي درويش، كيف أحبط المترجمون العرب حرب أمريكا على الإرهاب الدولي، على الرابط التالي: http://www.alarabiya.ws

22 - علي درويش، الترجمة العربية بين الاختلاق والحضارة الزائفة: إشكالية التوطين والمحاكيات الحضارية، على الرابط التالي: http://www.alarabiya.ws

23 – المرجع السابق، ص 1

24 - Brown, J. A. C. (1963) Techniques of Persuasion From Propaganda to Brainstorming. London: Belican

25 – علي درويش، المرجع السابق، ص 1

26 - Chesterman, A. (1997) Memes of Translation: The Spread of Ideas in Translation Theory. Amesterdam: John Benjamins